

مجالس الاقتراء في العصر النبوي

وعلاقتها بالتربية اللغوية للصحابة رضوان الله عليهم

د.خالد فهمي
باحث أكاديمي

الاقتراء في اللغة: هو عين القراءة، فقد روي عن سيبويه أنّ قرأ واقترأ بمعنى واحد، كما جاء في لسان العرب (قرأ).

أما في اصطلاح علوم القرآن، والقراءات فهو إقراء القراء بعضهم بعضًا، بمعنى أن يجلس عدد يقرأون، وبينهم من يصحح بهم قراءتهم.

وهو مصطلح لم أجد من ذكره، أو عرف به ممن صنعوا معجمات لمصطلحات القراءات من أمثال: محمد المختار ولد اباه، والدكتور عبدالوالي المسؤول، والدكتور إبراهيم سعيد الدوسري، أحمد محمود عبدالسميع الحفيان.

وقد جاء هذا اللفظ في حديث أخرجه أبوعبيد القاسم بن سلام الهروي سنة 224هـ في كتابه: فضائل القرآن (تحقيق مروان العطية وآخرين، دار ابن كثير، دمشق 1420هـ=1999م ص 68) أن سهل بن سعد الأنصاري، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نقترئ، يقرئ بعضنا بعضا، فقال الحمد لله، كتاب الله عز وجل واحد فيه الأحمر والأسود، اقرأوا، اقرأوا، اقرأوا».

اقترب من هذا اللفظ لفظ آخر هو: التدارس، الذي ورد في أحاديث ترغب فيه، وتمتدح فاعليه، ففي الحديث عن عقبة بن عامر، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد نتدارس القرآن، فقال: تعلموا كتاب الله عز وجل».

ومثل ذلك ألفاظ: تعلم القرآن الكريم، ومجالسته.

ومن هنا يتضح لنا أن هذه الأربعة الألفاظ هي أكثر الألفاظ العربية دورانًا في باب العناية بقراءة القرآن، وتعلمها، وإتقان قوانينها.

ويظهر من استقراء صور الإقراء في العصر النبوي حصرها في الصور الأربعة التالية:

الأولى: إقراء النبي ﷺ الصحابة القرآن الكريم، بالتعليم المباشر.

الثانية: شهود الصحابة عرض النبي ﷺ القرآن الكريم على جبريل عليه السلام.

الثالثة: سماع النبي ﷺ القرآن الكريم من الصحابة، فيما يشبه القراءة عليه ﷺ.

الأخيرة: جلوس الصحابة في مجالس وحلقات، يقرئ الأعلم بالقرآن الكريم غيره، ويصوّب له قراءته.

وهذه الصورة الأخيرة ظاهرة في الحديثين المذكورين في بيان مفهوم الاقتراء هنا، وفي كتب فضائل القرآن الكريم، وكتب علوم القرآن الكريم، والمدونات الحديثية أحاديث أخرى كثيرة تثبت صور الإقراء المختلفة المذكورة.

فمن أحاديث الصورة الأخيرة أيضًا ما يروى عن الأعمش من أنه قال: «مرّ أعرابي بعبدالله بن مسعود وهو يقرئ قومًا القرآن، أو قال: وعنده قوم يتعلمون القرآن».

ونحن نلحّ على هذه الصورة، لأنها هي الصورة التي استمرّت بعد عصر النبوة، في عهد الراشدين ومن بعدهم، يقول سليمان بن يسار: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج من خوخته، (أي: حجرته) فأتى على قوم يقرأون، فلما رأوا عمر أنصتوا، فقال: كنتم تراجعون؟ فقالوا: كنا نقرئ بعضنا بعضًا، فقال: اقرأوا، ولا تلحنوا»(١).

دور مجالس القرآن في التربية اللغوية للصحابة

مفهوم التربية اللغوية مفهوم حديث نسبيًا يشتبك مع علم اللغة التطبيقي في مجالين، هما: اكتساب اللغة، وتعلمها، وهو يكاد يكون فرعًا من فروع اللغة التعليمي.

وتحليل مجالس الاقتراء في العصر النبوي في ضوء مفهوم التربية اللغوية يمكن أن يكشف عن منهج متمايز، ودور بارز اضطلعت به مجالس الاقتراء في تربية الصحابة رضي الله عنهم لغويًا.

ويكاد يدور مفهوم التربية اللغوية عند المنشغلين به حول تنمية قدرة الإنسان في الأداء اللغوي الصحيح، نطقًا، وتأليفًا للكلام، وفق قوانين صحة الكلام، صوتيًا وصرفيًا وتركيبيًا.

وفيما يلي يحاول هذا المقال رصد العلاقة بين مجالس الاقتراء في العصر النبوي والتربية اللغوية للصحابة رضى الله عنهم، وما تصنعه من ترقية الأداء اللغوي، بسبب ما تنتهجه إجراءات التربية اللغوية، ووسائلها.

وتتلخص هذه الأسس التي وفرتها هذه المجالس القرآنية فيما يلي:

أولًا: التهيئة النفسية.

ثانيًا: تبين الحروف، وتفصيل النطق بها في قراءة النبي ﷺ.

ثالثًا: رفع الصوت بالقراءة، وطلب تحسينه.

رابعًا: ترديد النص المقروء أكثر من مرة، مع تعاهد القرآن الكريم.

خامسًا: تصحيح خطأ القارئ، ورده إلى الصواب.

سادسًا: استصحاب النظر في المصحف المكتوب في أثناء القراءة.

وفيما يلي بيان هذه الأسس الستة التي مارسها القراء في حلقات الاقتراء في العصر النبوي، وما تركته من أثر في تنمية الأداء اللغوي للصحابة رضوان الله عليهم.

التهيئة النفسية

من المقرر في أصول التربية ضرورة تهيئة البيئة النفسية للمتعلمين حتى تثمر العملية التعليمية التربوية، وقد جاء عن النبي ﷺ مجموعة من الأحاديث تمثل أصلًا جامعًا للتهيئة النفسية، تبعث على الإقبال على برامج تلقي القرآن الكريم، وحسن أدائه وقراءته، من مثل:

أ- السكينة والرحمة نتيجة للارتباط بمجالس الاقتراء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»(صحيح مسلم)(٢).

ب- رصد الأجر والثواب وعلو المنزلة للماهر بالقراءة، فقد أخرج أبوعبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص٤٩) حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ «إن الذي يقرأ القرآن وهو به ماهر مع السفرة الكرام البررة».

ج- تشجيع المبتدئين والضعاف والمتأخرين في التحصيل وعدم تيئيسهم، فقد أخرج أبوعبيد القاسم بن سلام في فضائله (ص٤٩) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «والذي يقرأ القرآن وهو يشتد عليه فله أجران».

د- مضاعفة الثواب على التلاوة، أخرج أبوعبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص٥٠) من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر». ومن هنا فإن تأمل هذه العوامل تدلنا على مدى ما يحرص الإسلام على توافره دفعًا للنفوس على التقدم نحو قراءة الذكر الحكيم، الذي

يحقق أصلًا جامعًا من أصول التربية اللغوية التي تهيأت للصحابة رضوان الله عليهم.

تبين الحروف، وتفصيل النطق بها في إقراء النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم

جاء في وصف قراءة النبي ﷺ أنه كان يقرأ بتؤدة وهدوء، ويحرص في قراءته على تبيين الحروف، وتفصيل النطق بها، وهو أمر مهم جدًا في برامج تعليم اللغة، وهو ما كان له الأثر البالغ في ترقية اللغوية للصحابة وفيما يلي ما يثبت ذلك:

أ- أخرج أبوعبيد في فضائل القرآن (ص ١٥٦) عن أم سلمة أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ «قراءة مفسرة، حرفًا حرفًا».

ب- وأخرج أيضًا (ص ١٥٦) عنها رضي الله عنها أنها وصفت قراءته ﷺ بأنه كان يقطِّع قراءته، أي يفصلها ويبين حروفها، ويقف على رأس كل آية.

رفع الصوت بالقراءة،

ومما استقر أيضًا في برامج علم اللغة التعليمي، الأثر الإيجابي للقراءة بالصوت المرتفع، فمما تقرره ماريان وايتهيد في كتابها عن التنمية اللغوية أن القراءة ذات المغزى بالصوت العالي لها أثر إيجابي فعال في تنمية اللغة والتواصل بين المتعلمين، وهو الأمر الذي كان يحرص عليه رسول الله ﷺ مع أصحابه، فمما جاء من وصف قراءة النبي ﷺ أن عبدالله بن المغفل قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يومَ الفتحِ على ناقة له، يَقرأُ سورةَ الفتحِ، أو منْ سورةِ الفتحِ، قال: فرجّع فيها، قال: ثم قرَأ مُعاويةُ يَحكي قراءَةَ ابنِ مُغَفّلٍ، وقال: لولا أن يَجتَمعَ النّاسُ عليكم لرَجّعتُ كما رجّع ابنُ مُغَفّلٍ، يَحكي النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم. فقلتُ لمعاوية: كيف كان تَرجيعُه؟ قال: آ آ آ، ثلاثَ مراتٍ.(صحيح مسلم). والترجيع تحسين الصوت بالتلاوة.

ومن ذلك أمره ﷺ للصحابة بقول: «زينوا أصواتكم بالقرآن»

وهذان الحديثان مثالان على عناية المنهج النبوي للقراءة بالصوت العالي الحريص على التزيين، وهو من العوامل الفاعلة في التنمية اللغوية للأفراد.

ترديد النص المقروء أكثر من مرة

مما جاء عن رسول الله ﷺ وتعليمه الصحابة رضي الله عنهم الحرص على ترديد النص المقروء أكثر من مرة.. صحيح أن ذلك كان بدافع الإعانة على التدبر المفضية إلى الخشية، والتأثر بالمعنى المتضمن في الآيات، لكنه يؤدي في الوقت نفسه إلى استقامة طرائق النطق، وبرامج علم اللغة التعليمي، في المختبرات والمعامل اللغوية تحرص في بعض مستويات تعليم اللغة على الترديد للنص المقروء طلبًا لضمان صحة أدائه، ومما يدل على ذلك:

أ- ما أخرجه أبوعبيد في الفضائل (ص١٤٦): «أن ابن مسعود صلى ليلة، قال: فذكروا ذلك، فقال بعضهم: هذا مقام صاحبكم منذ الليلة يردد آية حتى أصبح. قال ابن عون: بلغني أن الآية: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه: ١١٤).

ب- ومثل ذلك التعبير وارد عن كثير من الصحابة من مثل: الفضائل (١٤٥) فلم يزل تميم الداري يرددها حتى أصبح. وعن أسماء بنت أبي بكر أنها ذهبت إلى السوق في حاجة ثم رجعت وهي تكرر ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾(الطور: ٢٧). كما تواتر الأمر بتعاهدَ القرآن الكريم، أي مداومة الاتصال به، وحفظه، وهما أمران فاعلان فاعلية إيجابية في التربية اللغوية، بما هو المثل الأعلى.

تصحيح القارئ

إن فكرة الإقراء، والسماع قائمة في الأساس على إقامة المثال الحي على القراءة الصحيحة، وهو الأمر المفهوم من عبارة «أقرأنيها رسول الله ﷺ» التي ينطق بها كثير من الصحابة عند الاختلاف معهم.

وليس يعقل أن يستمع رسول الله ﷺ ولا الصحابة العلماء إلى من يقرأ فيخطئ من دون تدخلهم بردّه إلى الصواب، ذلك أن رسول الله ﷺ بعث ليبلغ، وليس من شأنه ولا سمته أن يسكت على خطأ أو باطل.

ومن أجل ذلك تواتر الأمر بتجنب اللحن، أو الخطأ في القراءة:

أ- أخرج ابن وهب في الجامع ٤١/٣ حديث ٧٣ عن عمر أنه قال «اقرأوا، ولا تلحنوا».

ب- و أخرج كذلك ٤٢/٣ حديث ٧٨ عن ابن عياش عن سعيد بن عبد الله القرشي عن أبي الزناد أن رجلًا قرأ عند رسول الله ﷺ، فلحن، فقال رسول الله ﷺ: «أرشدوا أخاكم»

ومن أجل ذلك لم يكره العلماء نقط المصحف، ولا شكله ليعينوا على القراءة السليمة المنضبطة، فمما جاء في ذلك:

أ- ما أخرجه وهب في الجامع ٤١/٣ حديث ٧٤ عن نافع قال: سألت ربيعة بن عبدالرحمن عن شكل القرآن في المصاحف، فقال: لا بأس بذلك.

ب- وأخرج كذلك ٤١/٣ حديث ٧٥ عن الليث بن سعد قال: لا أرى بأسًا أن ينقط المصحف.

استصحاب النظر في المصحف المكتوب

ومما استقر كذلك أن استثمار أكثر من حاسة في عملية التعلم مثمر بدرجة أعلى، مقارنة باستعمال حاسة واحدة. ومن هنا فإننا قد نفهم من الأمر بالنظر في المصحف في أثناء التلاوة ما يسرع بتنمية القدرات اللغوية والقرائية لدى من يفعلون ذلك، وقد أثبت علم نفس التعلم أن استصحاب الصورة، أو الرموز الحرفية معين جدًا في عمليات تحسين التعليم، وتحسين القراءة.

الهوامش

١- الجامع لعلوم القرآن لابن وهب، تحقيق ميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي سنة ٢٠٠٣م (٤١/٣).

٢- أخلاق حملة القرآن، للآجري ص ٥٠ حديث ٢١.